حروبُ أوروبا الاستعمارية في أمريكا اللاتينيّة خلال العصر الحديث (1492-1550م)

■ أ. د. حسام جميل النايف[1]

ملخّص

يتنـاولُ هذا البحث، الاسـتعمارَ الأوروبي لقارة أمريكا اللاتينيّة خلال القرن السّـادس عشر، وقد ركَّزَ على تاريخ القارة الأمريكية (وبشـكل خاص أمريكا اللاتينيّة)، في فترة ما قبل الاسـتعمار الأوروبيّ، من خلال التعرف على أهمِّ الشعوب التي استطاعت الوصول إلى القارة قبل معرفة الأوروبيين بها. والحضارات التي نشأت وازدهرت قبل تعرُّض القارّة للغـزو الأوروبي، ومن أهمّها حضارات الأزتك والأنكا والمايا، مع وصف مُختصر لهذه القـارات، والتقدُّم الذي وصلـت إليه. كما يتعرَّض البحث كذلـك، للغزوات الأوروبية الأولى للقارّة، وبشـكلٍ خاصّ رحـلات كولومبوس الأربع، ورحلة أمريكو فيسـبوتشي والرحَّالة الفاريز، وما حدث خلالها من اكتشافات. وقد تمَّ التطرُّق إلى التوسُّع الأوروبي داخـل القارة، والتدمير المنهجيّ للحضارات القديمة التي كانت قائمةً حتى ذلك الوقت في القارة. ونهب خيراتها وقتل سكّانها واستبدالهم بالعنصر الإفريقيّ. كما تطرَّقَ البحثُ إلى أهمّ النَّتائج السـلبيَّة للاسـتعمار الأوروبي للقارة، وما خلَّفه هذا الاستعمار من نهبٍ للثَّروات، وتفريغ للسّكان، وتغيير في طبيعة المجتمعات الأمريكيّة هناك.

الكلمات المفتاحية:
أمريكا اللاتينيّة- الغزو الأوروبي- الاستعمار- الحضارة- الحرب.

1 - أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، رئيس قسم التاريخ، جامعة دمشق - سورية.

مُقدِّمة

«يُعدّ اكتشافُ القارة الأمريكيّة، وطريق الهند، عبر رأس الرّجاء الصّالح، أعظم وأهمّ حدثين في تاريخ البشريّة الحديث. ولم تكن حكمة البشر، تستطيع أن تتنبأ بأية فوائد أو مصائب للبشريّة ستنتج عن هذين الحدثين العظيمين من الآن فصاعداً. لقد قدَّم اكتشاف أمريكا مساعدة جوهريّة لوضع أوروبا، فاتحًا سوقًا جديدة لا تُستنفذ، أدَّت إلى توسُّعٍ ضخمٍ للقوى المنتجة وللدخل الحقيقي والثروة»[1].

يُؤثِّرُ الامتدادُ الواسعُ لأمريكا اللاتينيّة في المقام الأول على مظاهرها الجغرافية، فيغنيها بالمناطق الطبيعية التي تتوزع بين الشمال والجنوب، والغرب والشرق. ولهذا يمكن اعتبار أمريكا اللاتينيّة ككل، وحدة طبيعية كاملة، لا علاقة لها من حيث التكوين الجيولوجي والتطور المناخي والنباتي والتضاريسي بالأقسام الشمالية من أمريكا، أي أمريكا الأنغلوسكسونية، والمكسيك.

ومن جهة أخرى، ففي أمريكا اللاتينيّة اختلافات طبيعية في التفاصيل، بين المكسيك وبقية أجزاء أمريكا الوسطى، وبين أمريكا الوسطى والجنوبيّة أيضاً، لكن يُمكن القول: إنَّ أمريكا الجنوبيّة أكثر تكتُّلاً من الناحية الطبيعية من الأجزاء الأخرى من القارة .

وبعد مرور أكثر من خمسة قرون، لا تزال رحلةُ كريستوف كولومبوس تثيرُ المزيدَ من الأسئلة. أسئلة عن أهمية الرحلة. وأخرى عن الرجل الذي قام بالرحلة. هل كانت فتحًا جديدًا من فتوح البشرية، أم دمارًا مؤكدًا لحضارة نقية، عاشت وتطورت بعيداً عن آفات العالم القديم؟ وهل كان الرجل بطلاً ومُكتشفاً باهرًا، أم سفَّاحًا لا يقلُّ هولاً عن بقية السفَّاحين الذين عرفتهم البشرية؟ فقد شكّلت الرحلة نهاية زمن وبداية زمن جديد.

وفي العام نفسه (1492م)، سقطت آخر قلاع المُسلمين في غرناطة، وبدأ عصرُ الأُفول

1 - تشومسكي، 1999، ص11

الإسـلامي. واسـتولت على غرناطة الملكة إيزابيلا، وهي نفسـها التي موَّلت رحلة كولومبوس وباركتها. وبدأت مرثية الغروب للحضارة الإسلامية، وأعلنت الحضارة الغربيّة انتصارها المُدوّي، سـواء في العالم القديم، عندما حاصرت كلّ طـرقِ التجارة التقليديّة باكتشـاف الطرق البحريّة الجديدة، وتنامت قوتها العسـكرية ضد كلّ رفاق الحضارة القديمة، أو في العالم الجديد عندما اقتحمت مجاهل الأطلسي حتى اكتشفت قارةً كاملةً. وهكذا أصبحت ذكرى كولومبوس مناسبةً عالميةً أكثر منها مناسبة تُهمُّ أمريكا أو أوروبا وحدها[1].

أولاً: أمريكا اللاتينيّة قبل الغزو الأوروبي

إمبراطورية المايا

امتدّت حضارةُ المايا من مُنتصف القرن الثالث الميلادي إلى القرن العاشر الميلاديّ. وخلال هذه الفترة أَسَّـسَ المايا أكبر مدنهم، وحقَّقوا إنجازاتهم المُتميزة في مجالات الأدب والعلوم. بالإضافة إلى ذلك، بدأ المايا ممارسة تشييد النُصب التذكارية، تخليدًا للأحداث المُهمة في حياة قادتهم.

لقد كان المايا في كلّ العصور جنسًا قلقًا، لا يستقرُّ له قرار؛ إذ لطالما هُجِّروا في بلادهم نفسها، غواتيـمالا ويوكاتان المدينة تلو الأخرى. ورُغم أننا لا نسـتطيعُ بطبيعة الحال أن نعزو ذلك إلى سببٍ وحيدٍ، فإنَّه من المُحتمل – إذا ما استطعنا أن نخترقَ حُجب الظلام التي تُخفي تاريخَ المايا القديم- أن نتوصلَ إلى سـببٍ أصبحَ اليوم واضحاً، وهو أن شـعوباً همجية كانت تضغط عليهم من كلّ الجهات، وتهاجمُ عند كلّ فرصة تسنح لها، وتمتصهم شيئاً فشيئاً[2].

قبـل قرون من وصول المُستكشـفين الأوروبيّـين إلى العالم الجديد، كان المايـا يبنون مدنًا ضخمةً، ويدرسـون النجومَ، ويخلقون لغة مكتوبة مُعقدّة في الأدغال والسّـهول السّـاحلية في أمريكا الوسطى، وهي منطقة ثقافيّة تشمل المكسيك وأجزاء من أمريكا الوسطى.

وبحلول الوقت الذي وصلَ فيه الغزاةُ الإسـبانُ في القرن الخامس عشر، كانت مدنُ المايا قد هُجِّرت لفترةٍ طويلة، وكانت في حالة خراب. ورغم أنَّ حضارةَ المايا الكلاسيكية لم تعد موجودةً، فإنَّ المايا كثقافة كادت أن تختفي.

1 - كولومبوس، 1997، ص144-145

2 - رادين، 1989، ص136

اليوم، يعيشُ أكثر من 7 ملايين شـخص من المايا في ولايات يوكاتان وكامبيتشي وكينتانا رو وتاباسكو وتياباس المكسيكيّة، وكذلك في دول أمريكا الوسطى بليز وغواتيمالا والأجزاء الغربيّة من هندوراس والسّـلفادور. إنَّهم، في الواقع، أكبر كتلـة واحدة من الأمريكيّين الأصليين الذين يعيشون حاليّا في أمريكا الشمالية أو الوسطى[1].

لأزتيك

وقـد كانت تمتدُّ مـن المحيط الأطلسي إلى المحيـط الهادئ، ومن هضبة المكسـيك حتَّى نيكاراجوا. وكان الأزتيك قد جاؤوا من الشـمال في القرن الثالث عشر، وأنشأوا مدينةً في وسط المُسـتنقعات، وفي المكان الذي شـاهدوا فيه نسرًا كبيراً يأكلُ حيةً ضخمةً. فاعتقدوا أنّها إشارةٌ من ربهم «مكسيتلي» لوقف سيرهم، وبناء عاصمتهم، التي ستحمل اسم مكسيكو. وسرعان ما تحدّت القبائل المجاورة أو خضعت ودفعت الجزية.

وقد سادت قوانينُ الأزتيك، وانتشرت آلهتهم في كلّ المنطقة. وتحدَّثَ الفلاسفةُ وعلماء الآثار عـن عادات الأزتيك، وما تركوه من قصور ومعابد وأهرامات، وعلينا ألَّا ننسى وحشـيةَ الأهالي في هـذا الإقليم، وهذا العصر. وذلك أنَّ الأزتيك كانوا يُحبِّون الدماء، وكانوا يتركون للفرد حريةَ اختيار مُستقبله، ولكن على أساس احتفاظ الدولة بحق التضحية به، وكما نرى، وبمجرد أن تطلب الآلهة تقديمَ القرابين والأضحيات لها[2].

الأزتك – بحسـب كلّ الاحتمالات- لم يتركوا موطنهم القديـم قبل عام 800 للميلاد. وكانوا يومـذاك شـعبًا مُتمدنًا بما فيـه الكفاية؛ لأنَّهم كانوا قـد خضعوا لعدة تأثـيرات ثقافية أتتهم من الجنوب، حتَّى وصلت إلى الولايات المتحدة. فإشعاع حضارة المايا الكبيرة، وكذلك إشعاعات الثقافات التي يحتمل أنها وصلت من أمريكا الجنوبيّة، كلّ ذلك وصل إليهم، وجعل من هؤلاء البُداة النهّابين أمة حضرية منظمة.

وكان الأزتيكُ، بعد أن خرجوا من موطنهم نصف الأسطوري، الذي يُسمُّونه الكهوف السبعة، آخر من دخل إلى مسرح الأحداث. وكانت قد سبقتهم إليه ستّ من قبائل الناهواتل الكبرى، التي

1- George, C&L. 2001, p8- 9

2 - يحيى، 1982، ج 4، ص210

كانت من أقربائهم المُقربين، والتي كان عليهم أن يُقارعوها من أجل أن يتوصلوا إلى السيادة على وادي مكسيكو. وكانت أولى القبائل التي اتّجهت نحو الجنوب، تلك التي يُطلقون عليها اسم: "زارعي الأزهار". وتلاهم "شعب الأفواه"، ثم "شعب الجسر"، ثم "شعب الممرات الملتوية"، "فشعب الداخل"، وأخيراً "شعب الذرة الصفراء".

وكان الأزتيـكُ آخـر من تركـوا بلادهم الغامضـة - الكهوف السـبعة - جالبـين معهم إلههم هويتزيلوبوشـتلي. وهذا الإلهُ كما يَدَّعون، هو الذي أمرهم بترك بلادهم، واعدًا إيّاهم بالسّيطرة على كلّ المقاطعات التي كانت قد استقرَّت فيها القبائل السّت التي سبقتهم من الناهواتل. وهي بلادٌ غنيةٌ بالذهب والفضة والمعادن الثمينة وغيرها من المواد القيّمة[1].

حضارةُ الإنكا

كانـت حضارةُ الإنكا، من أعظم الحضارات التي نشـأت في القارة الأمريكية، وتشـهدُ الأوابدُ والآثارُ الباقيةُ منها على مدى التقدم والرقي الذي شـهدته هذه الحضارة العظيمة. ولم تكن هناك بلاد تبدو أكثر أمناً من تلك المملكة الرابضة بين مرتفعات الجبال في نهاية العالم. إنها مملكة الإنكا في جبال الأنديز، بالقُرب من الشَّاطئ الغربي لقارة أمريكا الجنوبيّة، ومكانها الآن دولة البيرو.

كان شـعبُ الإنكا[2] قد عاشَ في منطقته المُنعزلة النّائية هذه، زهاء ألف سـنة على أقلّ تقدير، تمكّن مـن خلالها من صنع حضارةٍ راقيةٍ. فأنشـأ إمبراطورية عزيزة الجانب يحكمها ملك مطلق السـلطات، يُلقّب ب» الإنكا»، ومن هذا اللقب، جاء اسم الشعب الذي ينتمي إلى جنس الهنود الحمرَ، الذين كانوا يعمِّرون الأمريكيتين قبل قدوم الغزو الأوروبي. ولما كانت الأرض كلها جبليّة وعرة، لذلك، فقد نحتها شعب الإنكا على شكل شُرفات مُتصاعدة يزرعون فيها محاصيلهم وأهمها: «الكوكا». ونحتوا بين معارج

1 - رادين، 1989، ص70

2 - الإنكا: لقد طمسَ أصلُ سلالة الإنكا في ضباب أسطوري، إذ يقولون إنه جاء في القرن الحادي عشر ثلاثة رجال وامرأة إلى الجبال، وتسلَّقوا حتى وصولوا إلى غابات الأمازون، وبعد وصولهم إلى تلال «كوزكو» حطَّ الأربعةُ ووضعوا قطعةً ذهبيةً ادعوا أنهم ورثوها عن أبيهم «إله الشمس»، والذي قال لهم، أينما تغوص القطعة الذهبية في الأرض فهو مكانُ سكنكم، وقام اثنان من الأخوة بتحويل أنفسهم إلى صخور مُقدسة وتزوج الباقيان من ذكر وأنثى وبقيت عدةُ أجيال من الأخوة يتزاوجون فيما بينهم. وقد حكمت سلالة الإنكا في سلالةٍ صغيرةٍ في البدء، وبدأت بقيةُ القبائل المجاورة بمهاجمتهم ولكنهم انتصروا عليها وأنشأوا إمبراطورية امتدت عبرَ جبال الأنديز. (كورتيل: قاموس أساطير العالم، ص 181).

الجبال شبكة من الطرق المُمهدة تقفزُ فوق العقبات بوساطة جسور وأنفاق غاية في الدقة الهندسية[1].

لم تكن أوروبا نفسها تعرف مثل هذا التقدم الهندسي في ذلك الحين، أمَّا شعبُ الإنكا، فقد برعَ في الهندسة والعمارة والحساب، وكان له تقويمٌ شمسيٌّ دقيقٌ، بحسب دورة الأفلاك السماوية، إلى أقصى حدٍّ مُستطاعٍ من الدقة، وكانت له مدنٌ زاهرةٌ حصينةٌ بين الغابات وذرا الجبال، لا يُمكن أن يقتحمها عدوٌ، كما برعَ هذا الشعب في فنون النّحت وصناعة التحف والتماثيل وسبك المعادن[2].

لا شكّ أنَّ أحدَ الأسباب الرئيسة في نجاح الإنكيين في بناء إمبراطوريتهم تجسَّدَ بتنظيمهم العسكري. فتفوق جيشهم وقادته، وتجهيزاته، وتكتيكاته، ساعدهم في إيقاع الهزيمة بأعدائهم. وكان جيشهم مُنضبطًا انضباطًا عاليًا، ويتألفُ في غالبيته من أفراد جُنِّدوا من بين شعوب سبق وأن فتحوها[3].

والمفتاح الثاني لنجاح الإنكيين، في تشكيل إمبراطورية مُوحَّدة، تمثَّل بتنظيمهم للشعوب المفتوحة بلادها. ويُنسب إلى باتشاكوتي"Pachacuti"، تاسع ملوكهم، إقامة دعائم الإمبراطورية وجعلها تسير بفعالية، على الرغم من احتمال بدء تلك العملية في وقت سابق عليه. فقد قُسِّمت الإمبراطورية إلى أربعة أقسام، تنطلقُ خطوطُ عزلتها عن بعضها من مدينة كوزكو "Cuzco, "، العاصمة. وكانت هذه الأقسامُ مُتساويةً بعضها مع بعض في الحجم[4].

ثانياً: الكشوف الجغرافية في أمريكا اللاتينيّة وبدايات الغزو

الكشوف الجغرافية الإسبانية

في الوقت الذي بدأت فيه البرتغالُ البحثَ عن مُستعمرات لها في طريق التجارة الهندية، اتّجهت إسبانيا هي الأخرى إلى تدعيم مركزها السياسي الأوروبي بالكشوف والتوسُّع الخارجي، وقد توحَّدَ الإسبانُ والبرتغاليون في هدفٍ واحد، هو الوصول إلى جُزر التوابل، لكنهما تعاكسا في الاتجاه. فبينما اتجه البرتغاليون شرقاً، كان اتجاهُ إسبانيا إلى الغرب[5] وقد خرجت إسبانيا إلى الاكتشاف والاستعمار بعد التوحيد مباشرة، مُغربة في الأطلسي، ومن الطريف ذكره أنَّ الكشوفَ

1 - Somervill, B.A. 2009, p25

2 - موسى، 1992، ص125

3 - Rowe, J.H, 1946 , p.274

4 - مالباس،2012 ، ص78

5 - (نوار، 1999، ص64)، و(رمضان، 1997، ج1، ص234)

الإسبانية التي أدَّت إلى اكتشاف القارة الأمريكية، قامت على أكتاف غير الإسبان في البداية، فقد تزعَّمَ حركةَ الكشف الإسبانية كولومبوس الجنوي، وماجلان البرتغالي[1].

رحلات كريستوفر كولومبوس الأربعة

يُنسبُ البحّار الشهير كريستوفر كولومبوس (1451-1506) إلى جنوب إيطاليا، حيث تزوج في برشلونة من ابنة قائد كان قد أبحر عبر الأطلسي، حتى وصلَ إلى جزر أثورس. ومن قراءة رسائله ويومياته التي دوَّنهـا عن رحلاته، آمنَ كولومبوس بالنظرية التي تقول: بإنَّ الأرضَ كرويةٌ. وكان يريد إيجاد طريق إلى آسيا المشهورة بتوابلها[2].

نشـأت خطةُ كولومبوس من خلال الرغبة العارمة التي كانت تسودُ أوروبا في القرن الخامس عشر، من أجل الوصول إلى الشرق السـاحر، المليء بالذهـب والتوابل[3]، ومن أجل ذلك فإنَّهُ عرضَ فكرته على حكومته، ثم على الحكومة البرتغاليّة والإنكليزية. وبعد الكثير من المحاولات الفاشـلة، وجد أخيراً من يسـمعه ويمدُّ له يد العون، وهي الملكة إيزابيلا، ملكة إسبانيا الطامعة لملء الخزائن الإسـبانية الفارغة، بعد حروب الاضطهاد المريرة ضد المسلمين، وطمعاً بالوعد الذي قطعه كولومبوس للبلاط عن رغبته في الإبحار إلى " مناطق يُستخرج الذهب من أرضها كما يستخرج الحديد دون الحاجة إلى شرائه بالمال"[4] وطبقاً للأسطورة الشهيرة، فقد قامت الملكةُ إيزابيلا برهن مجوهراتها، لكي تُنفقَ على هذه الحملة الجريئة[5].

وبعد الحصول على مُوافقة الملكة الإسـبانية، ومُباركة زوجها الملك فرديناند، اللذان مَنحاهُ لقبَ حاكم على الأراضي المُكتشفة، وزوَّداه أيضًا بثلاث سفن صغيرة، بدأ البحَّار الجنوي حملة استكشافية بحرية إلى المحيط الأطلسي، انطلقت من ميناء بالوس في الثالث من آب عام 1492، حاملاً معه تسعين ملاَّحًا، مُتوجِّهًا نحو الغرب قاصداً الهند، دون أن يعرفَ أنَّ هناك قارةً لابدّ من اجتيازها قبل الوصول إلى آسيا.

سارَ كولومبوس وبعثته وسفنه في المحيط مدة شهرين وتسعة أيام، لاقى الجميعُ فيها الأمّرين،

1 - حمدان، 1983، ص58-59
2 - رودريجث، 1997، ص85
3 - كولومبوس، بداية الحلم أم ذروة المأساة، ص146
4 - المصدر نفسه
5 - رودريجث، 1997، ص85

قبل أن يصلَ إلى الأرض، تلك الأرض التي تُعرف بجزر الباهاما، والتي أُطلق عليها اسم سان سلفادور[1]، مُعتقداً أنه وصل إلى جزر الهند الشرقية (جزر الأرخبيل الياباني على شاطئ آسيا الشرقية[2]، على الرغم من أنه لم يجد أثراً للتوابل. ومن الباهاما توجَّه إلى شاطئ كوبا الشمالية، وجزيرة هاييتي التي أسماها بإسبانيا الصغيرة. ثم عاد في آذار 1493 إلى إسبانيا، يحملُ معه نماذجَ من النباتات غير المعروفة في أوروبا، كالبطاطا والتبغ والذرة والقطن، بالإضافة إلى كميات من الفضة والذهب. كما حمل معه مجموعةً من السكّان الأصليين[3].

وقامَ كولومبوس برحلته الثانية في 25 أيلول 1494، وعندما وصلَ إلى اسبانيولا (جزيرة هاييتي)، قام بتأسيس بلدة إيزابيلا بمساعدة 1310 من الإسبان. وتعدُّ هذه المدينة أولى المدن التي شُيدت في العالم الجديد. وقد دُمرت أثناء الحرب مع السكّان الأصليين بعد ذلك[4].

وبعد غياب دام قرابة ثلاث سنوات، وصل كولومبوس أخيراً إلى إسبانيا، وحط رحاله في ميناء قادش في 11 حزيران من عام 1495 [5].

وبعد ثلاث سنوات قام كولومبوس بتجهيز أسطوله لرحلةٍ جديدة، وفي 30 أيار 1498 غادر كولومبوس ميناءَ قادش مع ستة مراكب، وأكثر من 600 بحار. وفي هذه الرحلة، اتّجهَ إلى الرأس الأخضر بغية متابعة سيره غرباً. وبعد سنتين من الإبحار، وصل إلى جزيرة ترينيداد، وعند مغادرته هذه الجزيرة، وفي طريق عودته على طول ساحل فنزويلا، شاهد كميات هائلة من المياه تندفع من خليج أورنيوكيو، فكتب إلى الملك الإسباني يقول: «بأنه مقتنع بأنَّ هذه الأرض كبيرة جداً تُشبه في اتساعها قارة جديدة.

وفي رحلته الرابعة والأخيرة، انطلقَ كولومبوس يُرافقه 140 بحاراً على متن ثلاث سفن كبيرة ورابعة أصغر حجماً في 11 أيار 1502 من ميناء قادش الإسباني. وقد استمرت رحلته الأخيرة ما يقارب السّنتين والشّهرين، وعادَ أخيراً إلى إسبانيا في 7 تشرين الثاني 1504. دون أن تُسفرَ رحلته عن كشوف عظيمة، سوى التوصُّل إلى معرفة ساحل أمريكا الوسطى[6].

---

1 - أبو علية، 1987، ص12

2 - محلي، 1974، ص29

3 - مخزوم، 1983، ص91

4 - Hugo,D. D. 1936, p22)، و(رودريجث، 1997، ص85

5 - Hugo,D. 1936, p22- 25

6 Hugo, D. 1936, p22- 25

ومن سخريّة الأقدار، فإنَّ كولومبوس الذي كُرِّمَ في حياته ومُنحَ الكثيرَ من التقدير، تُوفيّ فقيراً مُعوزاً في 20 أيار من عام 1506، في بلد الوليد بإسبانيا، ولم يعرف أنَّ الأراضي التي اكتشفها تنسبُ إلى نصف الكرة الغربي، والتي كانت في ذلك الوقت مجهولةً بالنّسبة إلى مُعاصريه الأوروبيّين[1].

رحلات البحارة الفلورنسي أمريكو فيسبوتشي

قـام هـذا البحَّار بعدة رحلات نحو الغـرب، ما بين 1497و 1502 ، حيث سـار فيها بمُحاذاة الشَّاطئ الشرقي لأمريكا الجنوبيّة، دون أن يصلَ إلى نهايته[2].

تـأتي أهميةُ الرحلات التي قام بها هذا البحار، بنشره بعد عودته نبأ رحلاته بالكتابة عنها وعن الأشياء التي وجدها في أثناء هذه الرّحلات، حيث أعلنَ أنَّ البلادَ التي وصل إليها هي بلادٌ جديدةٌ ليسـت الصّين أو اليابان أو الهند، وإنَّما هي أرض جديدة مُختلفة عنها[3] وقد بعثَ إلى إسـبانيا برسالة في 10 آذار 1503 يُبشرُ بوجوده أمام قارة جديدة[4] غير القارة الآسيوية[5] واستندَ في إعلانه إلى ملاحظته أبراج النجوم المجهولة وانقلاب الفصول في القطب الجنوبي، حيث يسودُ الشتاءُ خلال شهور الصيف الأوروبي[6].

نُشرَ في عام 1504 التقريرَ الذي وضعه أمريكو عن البرِّ الجديدِ في سان ديغو في الفوج، فبدأ اهتـمام الأوروبيين بالبلاد الجديـدة، وطلب أمير اللورين ريني الثاني، مُشـجِّع الجغرافيين في ذلـك الزمان، من عالم الجغرافية والرياضيّات الألماني «والدمولار»، بأن يضعَ خريطةً مُناسـبةً عـن العالم الجديد، لتضمَ إلى تقرير أمريكو مُقترحاً تسـمية البرِّ الجديدِ فيها بأمريكا نسـبة إلى أمريكو أول المُتحدثين عنه[7].

---

1 - رودريجث، 1997، ص86

2 - محلي، 1974، ص30

3 - أبو علية، 1987، ص13

4 - لقد تنبَّأَ الفلكيُّ الإيطاليُّ بطرس مارتور في رسالة بعثَ بها إلى الكاردينال أسكانيوس سفورزا في الأول من تشرين الثاني 1493، بأنَّ كولومبس قد اكتشفَ عالماً جديداً، لا عالماً معروفًا، أوشاطئا آسيويا لبرٍّ قديمٍ. انظر: (محلي، أمريكا اللاتينيّة ، ص 30).

5 - محلي، 1974، ص30

6 - سيجورنه، 2003، ص26

7 - محلي، 1974، ص30

وهكذا أطلقَ الجغرافيون وواضعو الخرائط اسـمَ أمريكو فيسـبوتشي على القارة المُكتشفة، وصارت منذ ذلك الوقت تُسمَّى بأمريكا نسبة إليه[1].

الكشوف الجغرافية البرتغاليّة

رحلةُ البحارة كابرال بيدرو أَلْفَاريز (1467 – 1528):

اسـتمرت في حياة كولومبوس وبعدها، الحملات الجدية للتمكّن من كشـف معالم هذا البرِّ الجديدِ على الأوروبيين واحتلال المناطق الغنية منه. وكانت تركبُ السّفن المُبحرة نحو الغرب إذ ذاك، أعداد كبيرة من البحارة وجماعات غير قليلة من رجال الدّين المُتعصبين المُغامرين والمُرتزقة واللصوص من الإسـبان والبرتغاليّين، ممن يبحثُ عن السـلطة والذهـب والمجد في بلادٍ بكرٍ، تدفعهم إليها روح الحروب الصليبية التي عاشـوها في أوروبا والمشرق. وقد اكتشـفت شواطئ جديدة في أمريكا، منها عام 1500 الشَّاطئ البرازيلي، على يد البرتغالي كابرال بيدرو ألفاريز[2].

وفي الثاني والعشرين من نيسـان، رأى البحارةُ ما يُعرَفُ اليـوم بالجنوب الشرقي من البرازيل. وقد أعلـن كابرال المنطقة ممتلكات برتغالية. وتقعُ الأرضُ ضمنَ الأملاك البرتغاليّة، كما حدّدتها معاهدة توردي- سـيلاس عام 1494م. فقد كابرال واحدةً من السفن، وعادت سفينةٌ أخرى إلى البرتغال، لتنقلَ الأنباءَ عن رسو السفن. وبقيت السفنُ الأخرى في البرازيل لمدة ثمانية أيام، ثم تابعت الرحلة إلى الهند.

وقد نظرَ الملك عمانويل الأول في تعيين كابرال قائدًا لرحلة كشـفية أخرى إلى الهند، ولكنه اختار دي جاما بدلاً منه. وقد تقاعد كابرال بعد ذلك من الخدمة في البلاط الملكي[3].

ثالثاً: استعمار أمريكا اللاتينيّة

تدمير حضارة الإنكا

كان أمرًا طبيعيًّا ومنطقيًّا أن يبدأ غزو أمريكا واستعمارها، من المستعمرة الأولى التي أنشأها الغزاة في سـانتو دومينجو، فلم يحل عام 1600م حتى كانت الأراضي الممتدة من المكسيك الجديدة وفلوريدا

1 - (أبو علية، 1987، ص13)، و(رودريجث، 1997، ص86)

2 - محلي، أمريكا اللاتينيّة ، ص31

3 - الموسوعة العربية، 2007، ج17، ص598-599

شمالاً إلى تشيلي ونهر دي لا بلاتا جنوباً، فيما عدا البرازيل، تخضعُ للسيطرة الفعلية لعرش قشتالة[1].

لقد انتهت عملية الغزو كلها في مدة خمسين سنة، قام خلالها الغزاة الأوروبيون بالاستيلاء على إمبراطوريتي الأزتيك والإنكا، وبإخضاع القبائل، وباحتلال ثلثي سواحل القارة[2].

وكانت الدوافعُ التي أوحت إلى ملك قشتالة وملكتها بخلق إمبراطورية مُترامية الأطراف في القارة الأمريكية، هي الرغبة في الاستحواذ على ممتلكات أوسع كثيراً ممَّا كانا يمتلكان، ونشر الدّين المسيحي، والحصول على إيرادات كبيرة. أما الغزاة الإسبان الأولون، فكانت تُحرّكهم دوافع عدة، اختلفت قوة باختلاف الأفراد، والزمن، والمكان. فمنهم من دفعته الرغبة في الظفر بالثروة والمكانة، ومنهم من عمل لرفعة مقام عرش قشتالة ومجده، أو لنشر المسيحيّة، ومنهم من أغواه حُبّ المغامرة.

وقد تمت أهم الهجمات الأولى من دون أن يتحمل التاج أية تكاليف مباشرة، لأن قادة الحملات، كانوا أفراداً فتحوا ما فتحوا من أراضٍ على نفقتهم الخاصة، وبدوافع من أنفسهم، أو باسم الجالس على العرش، أو بمقتضى مراسيم ملكية، برجاء الحصول على إيرادات الأراضي التي وقعت في قبضتهم، أو منحهم حق حكمها وإدارتها. وعلى هذا الهدى فتح كورتيس "Cortés" المكسيك، وألفارادو "Alvarado" جواتيمالا، وبيثارو "Pizarro"، بيرو، ويمينيس دي كيسادا "Yemeenes de Quesada" غرناطة الجديدة[3].

ومنذ أن شاعت أوّل الأخبار عن وجودها عام 1513م، شكّلت البيرو محط اهتمام المغامرين جميعهم، فهي الأرض الموعودة التي حلموا جميعاً بغزوها، ومحركة الحملات التي أخضعت أمريكا الجنوبيّة كلها خلال ثلاثين سنة. وفي عام 1522م، قرّر مستوطنان متواضعان أن يضما ما معهما من أموال ليُموِّلا حملة جديدة، ويقتسما مكاسبهما في حصص متساوية مع حاكم بنما، مقابل إضفائه الشرعية على عمليات السلب، ومنحهما رتبة قائد التي لا بُدَّ منها للفاتح. وهكذا انطلق فرانثيسكو بيثارو[4] وديبغو دي ألماغرو "Diego de Almagro"، الجنديان المَغموران اللذان

1 - لانجر، 1963، ج4، ص1286

2 - لانجر، 1963، ج4، ص1290

3 - يحيى، 1982، ج 4، ص216

4 - فرنشيسكو بيثارو: فاتح إمبراطورية الإنكا، ومؤسس مدينة ليما، عاصمة البيرو. ولد في تورخيلو بإسبانيا في 1478م، تقول مصادر بيروفية، إنه ابن غير شرعي لغونذالوا بيزارو دي رودريغذ – دي أغويلا، قائد قوات المشاة الملكية الإسبانية، وامرأة عادية من عامة الناس تدعى فرانشيسكا غونذاليز ماتيوس. (مالباس، 2012، ص43).

لا يُتقنان القراءة والكتابة، نحو مملكة الذهب النائية التي سيدمرانها[1].

وفي عـام 1531م، بدأ بيثارو في الإبحـار نحو الجنوب فيما وراء بنما، وكان برفقته ثلاث سـفن، وذلك في محاولةٍ أخرى. وكما حدث للأزتيك في مكسـيكو، حدث للإنكا في بيرو. وفي هذه المرة تمتعَ الإسـبانُ بالقدرة والتفوق واستعمال العنف والقسـوة. فكان بيثارو قد تقدم وبرفقته 180 جندياً كان من ضمنهم 27 فارسـاً في داخل البيرو. وبسهولة حقَّقَ بيثارو انتصارات قليلة على الهنود الذين جابهوه في بداية الأمـر، وبعد ذلك اتخذ بيثارو طريقه من خلال جبلٍ مُرتفعٍ، ثم بعد ذلك من خلال جبال الأنديز، حتى وصل إلى مدينة كاجاماركا التي كانت موطن الإمبراطور أتاوالبا، وعَسكرَ بجيشه في الميدان الأوسـط الكبير. وفي الوقت نفسه لم يقم أتاوالبا بأية محاولة لإبعاد الإسبان عن عاصمة ملكه، لأنَّه كان واثقاً من تحقيق النَّصر عليهم. وعندئذ، أرسل بيثارو رسالةً إلى أتاوالبا، يدعوه فيها إلى القدوم إلى المعسـكر، وذلك من أجل التَّفاوض. وقد قبل أتاوالبا الدّعوة، وفي اليوم التالي الموافق 16 مـن شـهر تشرين الثاني عام 1532م، حُمل أتاوالبا على محفل إلى معسـكر بيثـارو، وكان برفقته 4 آلاف رجل، علاوة على حاشـيته، وكهنته الكبار، وقادة جيشـه، وعدد كبير مـن الحرَّاس[2]. وأخذَ الميدانُ الرئيـسُ في المدينة يعجُّ بآلافٍ من الخدم، والموظفين، والكهنة، والجنود غير المُسـلحين الذين جاؤوا اسـتعداداً للاحتفال الرسمي باللقاء بين ملكهم، وهؤلاء القادمين من العالم المجهول. ولكن بالرغم من هذا الخوف قرَّرَ الإسـبان استغلال عنصر المفاجأة لشنِّ هجومهم الغادر، واستغلَ بيثـارو مباني الإنكا في الميدان الكبير «أوزنو» لتنفيذ خطّته الجهنّمية، فوضعَ بعضَ المدافع الصّغيرة في المبنى الحجري المُقام وسـط الميدان للإشراف على الاحتفالات، كما أخفى رجاله في القاعات ذات الأسـقف الثلاثية والفتحات الكثيرة المُسـماة «هالانكا» التي كانت على حدٍّ تعبير أحد الجنود الإسـبان «كأنها صُنعت خصيصاً لتناسب أغراضهم»[3] وما هي إلاَّ ساعات قليلة حتَّى تمكَّن الإسبانُ من هزيمة جموع الإنكيين وأسر ملكهم، بوقوع الملك في الأسر تشتت كلّ جيشه، وذهب هباءً[4].

سرعان ما شـعرَ «أتاوالبا« ملك الإنكا الأسـير أنَّ هؤلاء الغزاة الغرباء لا يُهمهم سـوى شيء

1 - سيجورنه، 2003، ص53

2 - برجر، 1992، ص60

3 - موسى، 1992، ص126-127

4 - موسى، 1992، ص127

واحد هو الحصول على الذهب والفضة، وفكَّرَ أنه يستطيع أن يفدي نفسه بفدية كبيرة من هذه المعادن الثمينة، فعرضَ على آسريه أن يُطلقوا سراحه مقابل أن يملأ الحجرة[1] المسجون فيها، بالذهب مرة والفضة مرتين.

إنّ ثروات إمبراطورية الإنكا، التي جُمعت خلال ألف سنة، قد وصلت إلى هذا المكان كي تملأ الحجرة بالذهب مرة وبالفضة مرتين، ولكنها للأسف لم تكن كافية لإنقاذ حياة الملك، إذ بعد أن حصلَ الإسبانُ على آخر حمل جاء به آخر حيوان من قافلة اللاما، عرضوا على الملك أن يتحول للمسيحية أو يقطعوا رأسه، وعندما رأى الملك قسوة الإسبان وافق على التحول إلى المسيحيّة مقابل عدم قطع رأسه، ورغم ذلك لم يشفع هذا التحول له فقد اقتاده الإسبان إلى الميدان العام في كاجاماركا وأعدموه بزعم أنه كان يُنظِّم سراً هجوماً على الإسبان[2].

وبعد موت ملك الإنكا أتاوالبا، أصبحت الإمبراطورية تحت رحمة الغزاة. واستولى بيثارو في عام 1533م على مدينة كوزكو بمبانيها المُرصَّعة بالذهب[3]، الأمرُ الذي جعله يفرض سيطرته على البلاد عملياً. وبدأَ البحثَ عن مكانٍ بحيث يكون أفضلَ نقطةٍ للاتّصال مع إسبانيا، ويستخدمه كعاصمة للبيرو في الوقت نفسه. ومن أجل ذلك قام بتأسيس مدينة ليما (مدينة الملوك) في 18 كانون الأول 1535م[4].

وهكذا، وفي فترةٍ وجيزةٍ من الزمن، استطاع الغزاة الإسبان القضاءَ على إمبراطوريّة الإنكا وتدمير أوابدها الأثرية، وإبادة جزءٍ كبيرٍ من سكّانها، بحجة أنَّهم يسعون إلى تحويل هؤلاء السكّان إلى المسيحيّة والارتقاء بهم إلى مستوى الإنسان الأوروبي، على الرَّغم من أنّ هذه الإمبراطوريّة شهدت تقدُّماً علميًّا وحضاريًّا وعمرانيًّا منقطع النظير، وقلَّ وجوده في حضارات العالم القديم عامّة وحضارات القرن السادس عشر، بل تفوَّقت على الجنس الأوربي والحضارة الأوربية نفسها.

تدميرُ حضارة الأزتيك

يُعَدُّ فرانسيسكو أرناندیث دي كردبا أولَ إسباني طافَ بساحل شبه جزيرة يوكوتان عام 1517.

1 -كان طول هذه الحجرة سبعة أمتار ونصف، وعرضها خمسة أمتار ونصف.(مراد، 1915، ص86).

2 - Somervill, B.A. 2009, p. 62

3 - سيجورنه، 2003، ص62

4 - رودريجث، 1997، ص94

كما اكتشـفت في العام التالي حملة خوان دي جريخالبا سـاحل الجزيرة نفسها، وأدركوا وجود إمبراطورية كبيرة للهنود هناك. ولقد تحمَّس لهذه الأنباء السعيدة (دييجوا بلاثكيث) حاكم كوبا، الذي ما لبث أن قام بتعيين الشـاب هرنان كورتيس قائداً على رأس حملة عسـكرية عام 1519، والتي أسند إليها مُهمة غزو ذلك البلد الهندي الغني[1].

غادرَ كورتيس ميناءَ هافانا في شـباط عام 1519 على رأس حملة قوامها إحدى عشرة سـفينة، تحمـل أكثر من خمسـمائة جندي وعددٍ من المدافـع و16 حصاناً، ويُرافقه عـددٌ من أصدقائه المُقرَّبين وعلى رأسـهم برنال دياز دي كاستيلو وبارتولومي دي ولمبدو. وقد رحل كورتيس عن كوبا مُسرعاً بعد أن وصلته أنباء عن نية الحاكم بلاثكيث تغيير قيادة الحملة[2].

هاجمَ كورتيس جزيرة جوثوميل بالقرب من يوكاتان، وهناك اسـتطاع تحريرَ عددٍ من الإسبان وعلى رأسهم خيروينمو دي أجيلار الذي كان قد وقع في أسر المايا منذ أكثر من ثمانٍ سنوات. ثم تابع كورتيس حملته وصولاً إلى أراضي التاباسكوس، وبعد معارك عنيفة مع السكّان المحليين، حقَّـقَ كورتيس النصر، وعقد اتفاقاً مع التاباسـكوس، حصل بموجبـه على عشرين امرأة وعلى رأسهم السـيدة مارينا (مالنتشي)، وتعود شـهرة هذه المرأة لمعرفتها لعدة لغات محلية، والدور الكبير الذي لعبته في حملات كورتيس بعد أن أصبحت مُترجمته الرسمية[3].

وقد تلقَّى الإسـبانُ في بيراكورث هدايا قيِّمة من إمبراطور الأزتيك (موكتيثوما)، وأرسل إليهم سـفراءه يرجوهم مغادرة أراضيهم مقابل الذهب الذي يتمنـوه. وعلم كورتيس في ذلك الوقت بمسـاعدة عشيقته ومترجمته السّيدة مارينا بالأسطورة التي تنسبُ إلى الإله (كيتزاكواتل)، والتي تقولُ بأنَّ لون بشرته كان أبيضاً، وأنه وعد بالانسحاب، وبدأ كورتيس بالفعل في نشر هذه الأسطورة التي أفادت الغزاة كثيراً. ولكي يتركَ الإسبانُ انطباعاً لدى السّفراء، بدأوا بتحريك الجنود وعمل تدريبات عسـكريّة، كـما أنَّهم بدأوا يُطلقون بعض الطلقات من قطـع المدفعيّة. ثم بدأ الجيشُ الإسباني في الزحف نحو تينوتشتيلان حينما طلبت بعض القبائل الهندية من كورتيس مساعدتها من أجل الحصول على استقلالها من الأزتيك. وتغلَّبَ الإسبانُ على المقاومة، وذلك بمساعدة

1 - رودريجث، 1997، ص88

2 - D., Histoire De L›Amérique Espagnole, p 85

3 - (Hugo, D. p85)، و(رودريجث، 1997، ص89)

الهنود واستولوا على غنائم عديدة. ودخل كورتيس مُنتصراً تينوتشتيلان في الثامن من تشرين الثاني 1509. واستقبله بكبرياء الحاكم الضعيف موكتيثوما. وقام كورتيس بإلقاء القبض على إمبراطور الأزتيك، لأنَّه كان يخافُ من هجومٍ مُباغتٍ من قبل الأزتيك. وفي أثناء ذلك، وصلت أخبار تُنبئ عن وصول حملة بانفيلو دي ناربايث إلى بيرلكورث، والذي أرسله بلاثكيث يأمره بالقبض على كورتيس والاستمرار في الغزو باسم حاكم كوبا. وحينما علم كورتيس بذلك، خرج مُسرعاً من تينوتشتيلان كي يُواجهَ الحملةَ.

وبعد أن هزمهم بسهولةٍ قام بضمّهم إلى صفوفه، وعادَ مباشرةً إلى تينوتشتيلان، لأنَّ الأوضاع كانت قد تفاقمت هناك بسبب مذبحة النبلاء الهنود التي قام بها نائبه بدرو البارادو. وبدلاً من أن يُعاقب كورتيس نائبه أجبر الإمبراطور على أن يُلقي خطبةً على جموع شعبه الذين ما فتئوا أن رجموه بالحجارة حتَّى جُرحَ ولاقى منيته إثر هذا الحادث بأيامٍ قليلةٍ، وخلفه كويتا لاهواك.

وقد قرَّرَ الغزاةُ تركَ المدينة، وحينما بدأوا أو شرعوا بالانسحاب، تعرَّضوا لهزيمةٍ كبيرةٍ ولخسائر فادحة، وأطلق على هذه الهزيمة اسم الَّليلة الحزينة، وذلك لأنَّ هذه المعركة التي كلَّفت الإسبان غالياً نشبت ليلاً. وبعد فترةٍ وجيزةٍ بدأ الجيشُ الإسباني بمحاصرة تينوتشتيلان، وكان يحكم في ذلك الوقت كوا هتيموك خليفة كوتا لاهواك، الذي كان قد تُوفي مُتأثراً بمرض الجدري.

وبالرغم من الحصار الذي ضربه حول الأزتيك، إلاَّ أنَّهم لم يستسلموا، حيث استمروا في المقاومة من مكان إلى مكان، ومن منزل إلى آخر، حتَّى هُزموا وسقط إمبراطورهم في الأسر، وبدأ الإسبانُ في تعذيبه لكي يعترفَ بالمكان الذي يُخبئ فيه الكنوز.

وتقول الأسطورة بأنَّ الإسبانَ قاموا بمدِّ الإمبراطور وأحد وزرائه فوق مضجعٍ من الفحم المُستعر، وحينما رأى الوزيرُ الإمبراطورَ يتألم، توسَّل إليه أن يسمحَ له بالكلام، إلاَّ أنَّهُ أجابه بصبر، ربما تعتقد أنني في فراش مصنوع من الورد. وهكذا استشهدَ أبطال الأزتيك دون أن ينبسوا بشكوى ودون أن يكشفوا عن السرِّ الذي كان يبحث عنه الإسبان. وباحتلال تينوتشتيلان والموت البطولي لملك الأزتيك الأخير سقطت إمبراطورية الأزتيك.

وأعاد كورتيس تشييدَ الإمبراطورية، التي أُطلقَ عليها اسم المكسيك، ثم شرع بعد ذلك في تشييد مُدنٍ أُخرى. وقام الملك الإسباني كارلوس الخامس في عام 1522م، بتعيين كورتيس حاكماً وقائداً عاماً، كما أعطاه منصباً يختصُّ بالقضاء في إسبانيا الجديدة، وكانوا قد بدأوا في

تلك الفترة يُطلقون هذا الإسم على الأراضي الجديدة. ومع وصول أوّل نائب للملك (أنتونيو دي ميندوثا 1535)، بدأ تاريخ نيابة الملك في إسبانيا الجديدة[1].

البرتغال والتوسُّع في البرازيل[2]

لم يول ملوكُ البرتغال المُبهورون بفتوحهم الحديثة في آسيا وإفريقيا، اهتماماً كبيراً بالكشف الذي حقَّقه باسمهم كابرال، ولم يذهب أحدٌ لاحتلال الشواطئ التي وصفها فيسبوتشي، ممَّا حوَّلها إلى حقلٍ نموذجيٍّ للقراصنة الدُّوليِّين، وإلى وكر مُغامرات لا نهاية لها. فمنذ الحملة الأولى، كشفت ضفافُ ذلك الأقيانوس النّباتي الكتيم، عن وجود البرازيل، وهو جنس أشجار تُشكِّلُ أخشابه الحمراء مادّة صبغية ممتازة، كانت تُجلب من الهند منذ زمن قصير.

كانت هذه الأراضي نموذجًا من الفوضى، حين قرَّرت البرتغالُ استيطانها. إذ أنها أُخضعت خلال ما يقرب من ثلاثين عاماً للاستغلال، كما كان على السكّان الأصليين الرضوخ له، تحت وطأة أشدّ القوى همجية. فبيوتٌ أجنبيةٌ كثيرةٌ، وخاصة فرنسية، اعتبرتهم أملاكاً خاصَّة، كما اضطهدهم إلى حدِّ الهوس، قادة أوروبيون مُتسلطون[3].

لقد شجَّع إهمالُ البرتغاليّين الفرنسيِّين على إقامة مصانعهم الخاصّة بهم على السّاحل الشّمالي للبرازيل، وذلك من أجل استغلال هذه النوعية من الأخشاب، وفي الوقت نفسه كان الإسبانُ يتجوَّلون على شواطئ هذه الأراضي بحثاً عن ممَّر إلى الباسفيك، بمعنى أنَّهم كانوا يبحثون عن مضيق يربط بين المُحيطين.

وقام التّاجُ البرتغاليُّ -باعتماده على الأموال التي تأتي من الاستثمارات في الشَّرق- بإرسال أوّل حملة استعماريّة إلى البرازيل، بقيادة (مارتن الفونسو دي سوسا)، وذلك في عام 1530، وقام دي سوسا بعد ذلك بعامين بتأسيس أول منشأة برتغالية دائمة في أمريكا، وهي مدينة (سان بيثنيتي)،

---

1 - رودريجث، 1997، ص89-91

2 - البرازيل: اشتق اسم البرازيل من رحلة برتغالية مُهمة اشتركَ فيها أمريكو فيسبوتشي؛ ذلك لأنَّ السفنَ حملت في عودتها شحنةً من خشب الصباغ أحمر اللون مثل «البراساس» أي «الفحم المُتوهج»، وكان لونه برَّاقاً حتى لو أن قطعة منه وضعت على كومة من الخشب، لبدت الكومة كلها وكأنها تشتعل. فكان هذا أول كنز وجده البرتغاليون في ممتلكاتهم الجديدة، وهكذا صار المكان الذي جاء منه هذا الخشب «البراسا» يُعرف باسم «براسيل» أو البرازيل. انظر: (براون، البرازيل شعبها وأرضها، ص 44-45).

3 - سيجورنه، 2003، ص64

التي تقعُ بالقرب من مدينة سان باولو الحالية.

ثم قُسّمت أمريكا البرتغاليّة بعد ذلك بعامين أيضاً، إلى خمسة عشر داراً للقيادة الحربيّة، وكانت تُحكم بالوراثة. وكان لكلّ دار اتصال مباشر بلشبونة، وقد أطلق اسم المُتبرعين على النبلاء البرتغال المشهورين الذين كانوا يلقون الحظوة عند الملك، والذين أنعم عليهم بهذه الدور، ولسوء الحظ، فإنَّ العديدَ منهم لم يسافر أبداً إلى العالم الجديد، نظراً للمساعدة الضئيلة التي تلقُّوها من قبل التاج. أمَّا الذين سافروا منهم، فأنَّهم سرعان ما تأثروا بالمناخ وقلة المعادن والثروات السهلة التي كانوا يحلمون بالعثور عليها في وقتٍ قصيرٍ. كما أنَّ الكثيرَ من المُستعمرين تحوَّلوا إلى مُجتمعات غير مُنتجة، وسرعان ما تعرَّضت جميعُ الأقاليم التي تمتلكها الدّور الحربية لمشكلات إدارية خطيرة، باستثناء بعض الأقاليم مثل: (باهيا) وسان بيثنتي وبرنامبوكو، الأمرُ الذي أجبرَ العديدَ من النبلاء أو المُتبرعين على إعلان إفلاسهم[1].

وبشكلٍ عام كان الاستيطانُ البرتغالي في البرازيل شاقاً وبطيئاً، والمدينة البرتغاليّة برنامبوكو التي تمَّ إنشاؤها دُمرت عام 1530 على يد قرصان فرنسي، أباد ساكنيها وأحرق معامل تكرير السكّر فيها، ولعلاج نقص اليد العاملة الذي سببته المذابح والهرب إلى المناطق الداخلية، طُلب من برشلونة إرسال تعزيزات من الأفارقة، حيث وصلت أول دفعة عام 1552 من أنغولا وغينيا[2].

رابعاً: الميراث الاستعماري الأوروبي في القارة

استمرَ الوجودُ الإسباني في أمريكا اللاتينيّة أكثرَ من ثلاثة قرون (م1825-م1492)، إذ شهدت القارةُ الأمريكية خلالها مجموعةً من التغيُّرات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، نتيجة الاستعمار الإسبانيّ. وكان لهذاالاحتكاكُ الكثيرُ من الجوانب السَّلبيَّة والقليل من الإيجابيّة.

فقد قامَ الأوروبيُّون منذ دخولهم أمريكا بجميع الجهود الَّتي تهدف إلى تسخير سائر الموارد الاقتصاديَّة فيها لصالحهم فقط، دون أن يُؤخذ بالحساب مصلحة السكّان الأصليين. فبدأوا باتباع سائر السّبل الَّتي تكفل تأمين الغذاء الكافي للأعداد المُتزايدة من المهاجرين الأوروبيين، واهتمُّوا بالحصول على الثّروات المعدنيَّة الَّتي يمكن استعمالها لتجارةٍ خارجيَّةٍ رائجةٍ. هذا بالإضافة إلى

1 - رودريجث، 1997، ص136

2 - سيجورنه، 2003، ص64

عملهم على الحصول على سلعٍ أوروبيَّةٍ أو محليَّةٍ، يستطيعون بوساطتها تغطية حاجة السّوق المحليَّة، وتحقيق أرباح كافية.

أمَّا السكّان الأصليون، فقد تُرِكَ قسمٌ منهم لأعمال السّخرة الزراعيَّةِ في المناطق الَّتي تمَّ احتلالها بالقوَّة، وطُرِدَ قسمٌ آخر إلى مناطق الغابات أو المناطق الجبليّة النائية ليمارسوا الزّراعة البدائيّة، أو تربية المواشي، أو صيد الأسماك النّهرية[1].

وهكذا تكالب المستعمرون الأوائل لأمريكا اللاتينيّة من الإسبان، على تحقيق المنافع الخاصَّة بهم، دون الاهتمام بالسكّان الأصليين، أو المجموعات البشريَّة غير الإسبانيَّة. فتركوا آثاراً سيّئةً جدّاً في كلّ النَّواحي البشريَّة، والسياسيّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، وذلك، بسبب اندفاعهم بنهمٍ شديدٍ، نحو استثمار خيرات البلاد الزراعيَّةِ والمعدنيَّةِ على الشواطئ البرازيليَّة وجبال الأنديز، على حساب الشَّعب الهنديِّ الأصيل، وفقاً لنظامٍ إقطاعيٍّ ظالمٍ، يُسامُ فيه العمالُ الزراعيون سوء العذاب، سواءٌ أكانوا من أهل البلاد، أم من الجماعات الإفريقيَّةِ السَّوداء، الَّتي أتى بها الأسياد للقيام بالعمل الصَّعب في المناطق الاستوائيَّةِ الساحليَّةِ المنخفضة، تحت شروطٍ مناخيَّةٍ طبيعيَّةٍ مُضنيَّة[2].

والحقُّ، فقد كانت تسيطر على الإسبان - الَّذين ذهبوا إلى أمريكا اللاتينيّة - الرّوح العنصريَّة التي كانت سائدة في بلادهم أثناء حروب الاسترداد ومحاكم التَّفتيش، الَّتي شنُّوها ضدَّ عرب الأندلس، وسياسة الاضطهاد القاسية التي اتبعتها مَحاكم التَّفتيش ضد العناصر غير الإسبانيّة، سيّما المسلمين[3].

وبشكلٍ عام، فقد حملت موجاتُ الهجرةِ الَّتي أتت من إسبانيا، عناصرَ مُتباينةً من المجتمع الإسبانيّ. فكان من بين هذه العناصر النبلاء الفقراء، الَّذين كانوا يصبون بشكل ميؤوس منه إلى الثراء، كي يعيشوا في التَّرف والنعيم الَّذي كان مقصوراً على أعلى الطبقات الأرستقراطية. كما كانت هناك أيضاً أعدادٌ كبيرةٌ من الجنود، والمحامين، والهاربين من العدالة. أضف إلى ذلك الغزاة الَّذين عاشوا كالشَّخصيَّات العظيمة، وجعلوا معاملتهم مع الناس على هذا النَّحو، وأحاطوا

1 - محلي، 1974، ص139
2 - محلي، 1974، ص81
3 - محلي، 1974، ص82

أنفسهم بالأبَّهة، وأورثوا هذه الأبَّهة للمُنحدرين منهم.

أمّا الإسبّانُ غير المُخلّطين فهم قلّةٌ، وقد تولىَّ أصحابُ هذه الطبقة بشكلٍ عام، أعلى المناصب السياسيّة، والدينيّة، والاقتصاديّة، والقضائيّة في المُستعمرات. ولم يكن يُسمح لغيرهم من باقي الطَّبقات الوصول إلى هذه المناصب.

هذا، وقد كان الإسبانُ الغزاةُ، وأبناؤهم، وأحفادهم، وجميع القادمين اللاّحقين، متطلِّعين إلى أن يكونوا في مرتبتهم فوق السكّان الأصليين، ولذلك تحكّم هؤلاء المستعمرون بالسكّان الأصليين، وسخّروهم للعمل في مناجم الذهب والفضة، ومارسوا ضدهم كلّ أنواع القسوة والاضطهاد، وقد نجمَ عن ذلك حصول موجات موتٍ جماعيٍّ في صفوف السكّان الأصليين، فانخفضَ عددهم بشكلٍ كبير. ومهما يكن الرّقم الأساسي، فقد تمخَّضَ عن ذلك التَّدهور هلاك السكّان. وبعد أن أدركَ الإسبانُ حجمَ الكارثة التي تسبَّبوا بها لهؤلاء السكّان، اتَّجهوا نحو سياسةٍ استعماريَّةٍ جديدة، تقوم على أساس صياغة جماعات هؤلاء السكّان في قوالب حُكمٍ غير مباشرٍ، وبقيت استقلاليتها الذاتية مُحددة باستمرار، عبر آليات عمل الاستعمار الإسباني، الَّذي كان الهنودُ الحمرُ يقومون بتزويده بالعمالة الرخيصة والسلع، ويشترون منه البضائع بالإكراه في الغالب.

ولم يكتف الإسبانُ بذلك، بل عملوا على إدخال حضارتهم، ولغتهم، وثقافتهم، وديانتهم الكاثوليكية إلى القارَّة الجديدة. بيدَ أنَّ السكّان الأصليّين لم يتقبَّلوا في أوَّل الأمر هذه السياسة الإسبانية قبولاً حسناً، لأنَّهم كانوا مُتأثّرين بموجات الغزو الأولى، وما صاحبها من اعتداء، وسلب، وتسخير، ممَّا جعلهم ينظرون إلى الغُزاة الإسبان نظرةً عدائيَّةً. ولكنَّ البعثات الدّينيّة التبشيرية التي أرسلتها إسبانيا، سارت جنباً إلى جنب، مع حركات الغزو والاستعمار، وأخذت تنشرُ الكاثوليكيّة بين السكّان، حتَّى أصبحت كلّ أمريكا الوسطى والجنوبيّة - التي تُسمَّى أمريكا اللاتينيّة-مسيحيَّة.

الخاتمة

إنَّ أيَّ غزوٍ، لابُدَّ وأن يترك آثاره السلبيَّةَ على الشعوب الَّتي خضعت له، ولم يكن الغزو الإسبانيُّ خارجًا عن هذه القاعدة، فقد تغيَّر العالم الجديد إثر اصطدامه مع المؤسسات الإسبانيَّة القديمة، سواءٌ بعيوبها أم بميزاتها. هذا، وقد انتشرت المساوئ الإسبانية في أمريكا اللاتينيّة، وراحت تزداد وتتعدَّد حتَّى نجمَ عنها مساوئ أخرى، إذ أتى إلى العالم الجديد، مع قوارب عصر النهضة، مؤسساتٌ تعود إلى القرون الوسطى.

ومهما يكن، فإنَّ الفكرةَ الأفلاطونيةَ القديمةَ، التي كانت تقول: «إنَّ بعضَ النّاس قد وُلد ليحكُم، وبعضهم الآخر قد وُلد ليكون محكومًا»، قد تعرَّضت للهزيمة في أمريكا اللاتينيّة حينما انحطّت السلطات، وتحوَّلت إلى إداريين غير مؤهَّلين، إثر الفساد الناجم عن مُحاباة الأقارب، وذوي النفوذ وعن المفاهيم السطحية لدور الكنيسة ورجال الدين.

وبما أنَّ السَّيفَ قد عاونه الصَّليب[1]، فإنَّ الغزوَ الذي تحقَّقَ خلال النِّصف الأوَّل من القرن الأوَّل للاستعمار، كان عن طريق الحملات الّتي اعتمدت بشكلٍ رئيسٍ على الجنود والرهبان، لذلك حمل تاريخ أمريكا اللاحق هذين الشعارين: العسكري، والدّيني.

وعلى الرغم من الخلاف الّذي كان ينشبُ بين الحين والآخر بين العسكريين ورجال الكنيسة، فإنَّ الفريقين كانا يتحدّان ضد القوى السياسيّة الجديدة، وكذلك كانا يتّحدان لمساندة الملك، لاسيّما حينما يحصل من الفاتيكان على حقِّ الدعاية للسلطة الملكية: بمعنى السّيطرة على تعيين السّلطات الكنائسيّة في إسبانيا ومستعمراتها. (رودريجث، 1997، ص119-120)

1 - إشارة إلى أن الغزو الإسباني للقارة قام على أكتاف الغزاة والمبشرين.

المصادر والمراجع

أولاً: العربية والمُعربة:

- أبو علية، ع. (1987) تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، دار المريخ، ط1، الرياض.
- براون، ر. (1969) البرازيل شعبها وأرضها، ترجمة محمد عيد الفتاح إبراهيم، مراجعة عز الدّين فريد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ط1، القاهرة-نيويورك.
- برجر، ج. (1991) مكتشفو العالم الجديد، ترجمة السيد يوسف نصر، مؤسسة شباب الجامعة، ط1، الاسكندرية.
- تشومسكي، ن. (1999) 501 سنة الغزو مستمر، دار المدى، طبعة ثانية، دمشق.
- حمدان، جمال: استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق، ط1، بيروت.
- رادين، ب. (1989): الحضارات الهندية في أمريكا (الأزتك. المايا. الإنكا)، دار المنارة، ط1، اللاذقية.
- رمضان، ع. (1997) تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث (من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة)، ترجمة: يوسف شلب الشام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، مصر.
- رودريجث، أ. (1997): ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينيّة، ترجمة: عبد الحميد الغلاب وأحمد حشاد، المجلس الأعلى للثقافة ، ط1، القاهرة.
- سيجورنه، ل. (2003) أمريكا اللاتينيّة الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، ترجمة صالح علماني، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة.
- عمر، ع. (1992) دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية.
- كورتيل، آ. (2010) قاموس أساطير العالم، ترجمة سهى الطريحي، دار نينوى للنشر، ط1، دمشق.
- لانجر، و. (1963) موسوعة تاريخ العالم، ترجمة محمد مصطفى زيادة، أربعة أجزاء، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ط1، القاهرة-نيويورك.
- مالباس، م.أ. (2012) عصر الإنكا، ترجمة فالح حسن فزع، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، ط1، أبو ظبي.

■ مجلة العربي (1992) كولومبوس: بداية الحلم أم ذروة المأساة، دراسة مركز أبحاث مجلة العربي (مجلة العربي، العدد 400، آذار 1992.

■ مجموعة من المؤلفين (2007) الموسوعة العربية، ط1، دمشق.

■ محلي، س. (1974) أمريكا اللاتينيّة، مطبعة خالد بن الوليد، ط1، دمشق.

■ مخزوم، م. (1983) مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي(عصر النهضة)، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت.

■ مراد، م. (1915) الاستكشافات الجغرافية في 4000 سنة "من القرن العشرين قبل الميلاد إلى القرن العشرين بعد الميلاد"، مطبعة النهضة ، ط1، القاهرة.

■ مورينو، س. (1987) أدب أمريكا اللاتينيّة قضايا ومشكلات، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد، سلسلة عالم المعرفة، قسمين، القسم الأول، العدد 166، الكويت.

■ موسى، م. (1992) حضارات مفقودة، الدار المصرية اللبنانية، ط2، مصر-لبنان.

■ نوار، ع. (1999) التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة.

■ يحيى، ج. (1982) التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، المكتب الجامعي الحديث، ط1، الإسكندرية.

ثانياً: المراجع الأجنبية

■ George, C.L (2001) Maya Civilization, Lucent Books, United States of America.

■ Hugo, H. (1936) Avec 2 cartes dans le texte, Librairie Armand Colin 103, Boulevard Saint-Michel, Paris.

■ Le Vicomte, H. (1866) Onffroy de thoron, L'Amérique Equatoriale. Son Histoire pittoresque et politique, Paris.

■ Rowe, J.H. (1946), Inca culture at the time of the Spanish conquest. In Handbook if South American Indians. Vol 2, The Andean Civilizations, Washington, DC: Bureau of American Ethnology, 1946.

■ Somervill, A. (2009) Empire of the Incas, Chelsea House. New York.